لقد صارَ كُلٌّ منَ التَّطرفِ الدِّينيِّ والقوميَّةِ العُدوانيَّةِ محورَ اهتمامِ الرأي العامِّ في كُلِّ مكانٍ بالعالَمِ تقريبًا، ونحنُ نأسفُ بشدةٍ؛ لأنَّ المفاهيمَ والمعرفةَ الصَّحيحةَ الخاصَّةَ بالأديانِ والأممِ والقوميَّاتِ قدْ تأثَّرتْ كثيرًا بالتَّكهناتِ التَّاريخيَّةِ والثَّقافيَّةِ والسَّياسيَّةِ، وقدْ وصلَ تطرّفُ هذهِ المفاهيمِ وتحريفُهَا إلى ذُروتِهِ في عصرِنَا، كما يُعدُّ أتباعُ النَّظريَّةِ الشَّعبويَّةِ همُ الأسوأَ بهذَا الصَّددِ، وعلينَا أنْ نعترفَ أنَّهم ليسُوا جميعًا سياسيِّينَ، بلْ إنَّ منهُم الصَّحفيِّينَ والمفكرِّينَ، وهؤلاءِ الَّذينَ يُمَثِّلونَ النُّخبةَ المثقَّفَةَ الَّذينَ يبحثونَ أيضًا عنِ المَجْدِ الرَّخيصِ في هذَا المجالِ.

إنَّ هذَا الموضوعَ معقدٌ جدًّا وشديدُ الحساسيَّةِ؛ بحيثُ يتطلَّبُ احترافيَّةً غيرَ عاديةٍ، وتَوَجُّهًا شَامِلًا، وعقيدةً صالِحةً.

أوَّلًا: علينَا أنْ نتذكَّرَ أنَّ ظهورَ الأديانِ بدأَ منذُ آلافِ السِّنينَ قبلَ ظهورِ الأممِ، وتُعَدُّ المفاهيمُ الحديثةُ عنِ الأمَّةِ والقوميَّةِ -بغضِّ النَّظرِ عنْ ميزاتِها أو مثالبِهَا- صناعةً أوروبيَّةً، وقبلَ ظهورِهَا بفترةٍ طويلةٍ كانَ ولاءُ الشُّعوبِ الأوروبيَّةِ لِحُكَّامِهَا وليسَ للأمَّةِ، وكانتِ القارَّةُ كُلُّها تدينُ بالدِّينِ المسيحيِّ، وعلينا أنْ نتذكَّرَ أنَّه لم يبدأْ ظهورُ أيِّ دينٍ في داخلِ القارَّةِ الأوروبيَّةِ، بلْ إنَّ كُلَّ الأديانِ بمَا فيها الدِّينُ المسيحيُّ قد نشأتْ خارجَ القارَّةِ، ويبدُو العالَمُ المسيحيُّ المعاصرُ أكثرَ اتِّسَاقًا وانفتاحًا تجاهَ الحوارِ والتَّوصُّلِ إلى تَفَاهُمٍ وتسويةٍ في وجْهِ التَّطرُفِ الإسلاميِّ الحاليِّ.

ولم يكنْ الحالُ كذلكَ منذُ ٤٠٠ عامٍ مضَتْ، فقدْ تسبَّبتْ حربُ الثَّلاثينَ عامًا، والَّتي يُطلقُ عيها أيضًا الحربُ الدِّينيَّةُ في كثيرٍ من الدَّمارِ الَّذي حلَّ تقريبًا بالإقليمِ كُلِّه، وبنصفِ سُكَّانِ وسطِ أوروبَّا، وقد كتَبَ الفيلسوفُ الفرنسيُّ الكبيرُ (ميشيل دي مونتين) قائلًا: «لا يوجدُ عَدَاءٌ أشدَ من العَدَاءِ ما بينَ المسيحيِّينَ»، كما كتبَ مواطنُه «مونتسكيو» في كتابِهِ:"Persian Letters" (خطاباتٍ بالفارسيَّةِ)، الَّذي كتبَهُ بعدَهُ بمائةِ عامٍ تقريبًا، قائلًا: «ليستْ هناكَ مملكةٌ نشبَ فيها العديدُ من الحروبِ الأهليَّةِ كمثلِ مملكةِ المسيحِ».

وعندما تَمَّ توقيعُ معاهدةِ سلامِ «وستفاليا» في عامِ ١٦٤٨م، وانتهتْ حربُ الثَّلاثينَ عامًا بينَ الكاثوليكِ والبروتستانتِ تَنَفَّسَ المواطنونَ في أوروبَّا الصَّعْدَاءَ، ولكنَّ البابا أنوسنت العاشرَ لم يكنْ سعيدًا بذلكَ، وقامَ في خطابِهِ المشهورِ باستخدامِ تسعةِ مصطلحاتٍ سلبيَّةٍ لوصفِ كيفَ كانتِ الاتفاقيَّةُ نوعًا منَ «الغباءِ والفسادِ»!، وقد اعتقدَ البابا أنَّ الأملَ في وحْدَةِ العالَمِ المسيحيِّ، بعدَ هذهِ الاتفاقيَّةِ، قد انقطعَ إلى الأبدِ، وقد كانَ محقًّا إلى حدٍّ ما، ومنذُ ذلكَ الحينِ لم

يَعُدْ أيُّ شخصٍ يستخدمُ مصطلحَ«العالَم المسيحيّ»، وبدأَ النَّاسُ في الحديثِ عن أوروبَّا.
لقدْ بدأَ ظهورُ المفاهيمِ الحقيقيَّةِ للدَّولةِ والقوميَّةِ بعدَ ذلكَ بكثيرٍ، وعلينَا أنْ نعترفَ أنَّه في الفترةِ الَّتي تلتْ الثَّورةَ الفرنسيَّةَ عامَ ١٧٨٩م، أصبحَ للقوميَّةِ المدنيَّةِ خصائصُ أكثرَ قَبولًا وأكثرَ رومانتيكيَّةً من ذلكَ المفهومِ المتطرِّفِ الَّذي تتميزُ بهِ قوميَّةُ اليومِ، فقد أصبحتِ الأعلامُ والأناشيدُ الوطنيَّةُ مهمَّةً جدًّا، ولكنَّ الأكثرَ أهميَّةً هو أنَّ الأمَّةَ قد أصبحت مصدرَ السُّلطةِ السِّياسيَّةِ، وأصبح لكُلِّ فردٍ في الأمَّةِ حقُّ المشاركةِ في العمليَّةِ السِّياسيَّةِ، والحقُّ في أنْ يَنتخِبَ ويُنتخَبَ، وبهذا أصبحَ أفرادُ الشَّعبِ مواطنينَ يشعرُونَ بسَعادةِ الانتماءِ لبلدِهم، ففِي الأمَّةِ -ومِن خِلالها- يشعرُ الأفرادُ العاديونَ أنَّهُم جزءٌ من مجتمعٍ يستحقُّ العيشَ والعملَ، وحتَّى الموتَ فيهِ، وقد أعلنتِ الثَّورةُ الفرنسيَّةُ العظيمةُ أنَّ وحدةَ الأُمَّةِ تتحقَّقُ باتِّحادِ المواطنينَ معًا على مبادئِ الحريَّةِ والمساواةِ والإخاءِ، ولهذا فإنَّ مُواطِنِي الأممِ النَّاشئَةِ يعايشُونَ شُعُورًا عظيمًا؛ وهو الإحساسُ بالتَّضامُنِ القائمِ على المبادئِ سالفةِ الذِّكرِ.
وقد استخدم «الكاردينالُ ريشيليو» مصطلحَ «مصلحةِ الدَّولةِ العُلْيَا» حينَ كانَ يصوغُ مفهومَهُ للأُمَّةِ والدَّولةِ، وبهذا وجدَ مُسَوِّغًا كَي تَدْعَمَ فرنسَا الكاثوليكيَّةُ الائتلافَ البروتستانتيَّ في حربِ الثَّلاثينَ عامًا، ومعَ ظهورِ الأُمَّةِ كانَ التَّعارُضُ بينها وبينَ الدِّينِ حقيقةً أساسيَّةً واقعةً.
وعلى أيَّةِ حالٍ، لا علاقةَ لهذهِ القوميَّةِ المدنيَّةِ في صورتِهَا الأصليةِ بالمفهومِ المتطرِّفِ للقوميَّةِ، والَّذي ظهرَ لاحقًا، والسُّؤالُ هُوَ كيفَ أخذتْ قوميَّةُ «هيردير» الرومانتيكيَّةُ في ألمانيَا شَكْلَ قوميَّةِ «هتلر» المتطرِّفةِ بأفكارِهِ الرَّهيبَةِ عن التَّفوقِ العِرقيِّ والقوميِّ؟ ولماذا عادت مثلُ هذه القوميَّاتِ المتطرِّفَةِ للظُّهورِ في أوروبَّا بعدَ ٧٥ عامًا من الحربِ العالميَّةِ الثَّانيةِ؟
نحمدُ اللَّهَ على أنَّ هذَا الظُّهورَ لم يَصِلْ بعدُ إلى حدٍّ يستدعِي دَقَّ ناقوسِ الخطرِ، إلا أنَّ أعراضَ الظُّهورِ تثيرُ القلقَ - وبالمناسبةِ، فإنَّ الانتخاباتِ البرلمانيَّةَ الأوروبيَّةَ العامَ القادمَ ستكونُ في الواقعِ حاسمةً لهذَا السَّببِ-، وسيقومُ ممثِّلُو الأحزابِ القوميَّةِ في أوروبَّا بمحاولةِ إقناعِنَا أنَّ سُلوكَهم ما هو إلا رَدُّ فِعْلٍ ضِدَّ التَّطرُّفِ الإسلاميِّ الَّذي صدَمَتْ أفعالُهُ الإرهابيَّةُ العالَمَ في الأعوامِ الأخيرةِ، وتُعَدُّ الحجةُ -بأنَّ كُلًّا منَ المسلمينَ العاديِّينَ والمسيحيِّينَ يعانونَ منهُ علَى حدٍّ سواءٍ-حجةٌ باطلةٌ، وربَّما تكونُ عبارةُ «الإرهابِ ليسَ لهُ دينٌ» مجردَ صيغةٍ مبتذلةٍ، إلَّا أنَّها حقيقيةٌ تمامًا.

ولذلكَ أصبحتِ الأحزابُ الشَّعبيَّةُ هِيَ اللَّاعبُ الرَّئيسُ في السَّاحةِ اليومَ، وفي المناظراتِ السِّياسيَّةِ في أوروبَّا، وبالإضافةِ إلى تبجحِها ضِدّ النُّخبَةِ السِّياسيَّةِ ومؤسَّساتِ الإعلامِ والمالِ والاقتصادِ الحاليةِ، فإنَّ هذهِ الأحزابَ قدْ جعلتِ الدِّينَ عُنْصُرًا أساسيًّا في خطاباتِها.

إنَّها تستنكرُ خطرَ الأسلمةِ، وتؤكِّدُ الحاجةَ إلى إصلاحِ هُويةِ الغربِ المسيحيِّ، كما أنَّ الأحزابَ الشَّعبويَّةَ اليمينيةَ في أوروبَّا في العُقودِ الأخيرةِ، قد صارتْ تستخدمُ الدِّينَ لتحديدِ الأخيارِ؛ الَّذين يزعمونَ أنَّ هُويتَهم وتقاليدَهم مهددةٌ بسببِ النُّخبةِ المتحررةِ، و«الآخرينَ» الَّذين يشكلونَ خطرًا، وبالنِّسبةِ لأتباعِ الأحزابِ الشَّعبيةِ اليمينيةِ في أوروبَّا، فإنَّ هؤلاءِ «الآخرين» هم دائمًا من المهاجرينَ؛ ومنذُ هجماتِ الحادي عشر من سبتمبر الإرهابيَّةِ صارُوا هُم المسلمينَ. وبالطَّبعِ فقد أدَّى الإرهابُ الدَّوليُّ وانتشارُ الجهاديِّينَ بينَ أوروبَّا وسوريَا إلى توفيرِ ظروفٍ مواتيةٍ لهذا الادِّعاءِ.

وأنَا على يقينٍ من أمرٍ واحدٍ؛ ألَا وهُوَ أنَّ صوتَ المفكرِينَ في العالَمِ الإسلاميِّ الَّذين يُمَيِّزونَ بينَ الإسلامِ والإرهابِ يجبُ أن يكونَ أقوى ممَّا هو عليهِ اليوم؛ حيثُ يزعُمُ الشَّعبويونَ- الَّذين يخلطُونَ بينَ التَّطرفِ السِّياسيِّ والدِّينيِّ- أنَّ المسلمينَ سيتبنَون حتمًا آراءَ متطرفةً فيمَا يتعلَّقُ بالسِّياسةِ الخارجيَّةِ والدَّاخليَّةِ. وحينَ يتعلَّقُ الأمرُ بالدِّينِ المسيحيِّ، فإنَّ الشَّعبويِّينَ يقومُونَ حاليًا باستخدامِ الدِّينِ بمعنَى «الانتماءِ» أكثرَ منهُ بمعنَى «العقيدةِ»، وعلَى الجانبِ الآخَرِ، يرَى الشَّعبويُّونَ أنَّ الدِّينَ يمكنُ اختزالُهُ، في تبسيطٍ مُخِلٍّ داخلَ مجموعةٍ بسيطةٍ وواضحةٍ من القواعدِ السُّلوكيَّةِ والرَّمزيَّةِ بدلًا من كونهِ فَهْمًا مُرَكَّبًا لتاريخِ وثقافةِ العالَمِ.

يمكننا الإشارةَ في عجالةٍ إلى العلاقةِ بين المسيحيَّةِ والأحزابِ الشَّعبويَّةِ، ربَّما تبدو تلكَ الأحزابُ مدافِعةً عن القِيَمِ المسيحيَّةِ ذاتِها، إلَّا أنَّ الحقيقةَ مختلفةٌ؛ حيثُ إنَّ الشَّعبويِّينَ يتحدَّثون عن الهُويةِ السِّياسيَّةِ بينمَا تتحدَّثُ الكنائسُ عن العقيدةِ، وترتبطُ الهُويَةُ المسيحيَّةُ ارتباطًا شديدًا لدى الشَّعبويِّينَ بالفكرةِ الحالمةِ عنِ «الأيَّامِ السَّعيدةِ الخوالِي»، وهِى تَدَعمُ مفهومًا تاريخيًّا ومِثَاليًّا لحياةٍ مجتمعيَّةٍ تتميزُ بالتآلُفِ كانتْ موجودةً قبلَ قيامِ النُّخبةِ الحاليةِ، وهؤلاء«الآخرين» بتهديدِ رخاءِ وأرواحِ الصَّالحينَ الأخيارِ، بعبارةٍ أخرى، فإنَّ الانطباعَ الَّذي يتشكَّلُ هو أنَّ حركاتِ اليمينِ الأوروبيِّ تُدَافِعُ عن هُويةٍ مسيحيَّةٍ لأوروبَّا ليسَ بسببِ اهتمامِهَا بدعمِ المسيحيَّةِ، بل لوقفِ عمليةِ أَسْلَمَةِ أوروبَّا الَّتي تتعارضُ مع مبادئِ

التَّنوير الَّذي تفتخرُ به أوروبَّا، في ظِلِّ مجتمعٍ ما بعدَ العلمانيَّةِ؛ حيثُ تُشَكِّلُ الرُّموزُ والقِيَمُ الدِّينيَّةُ جُزْءًا من مجتمعٍ حُرٍّ يَتَمَيَّزُ بِالتَّعدُّدِيَّةِ.
وتحويلُ الرُّموزِ الدِّينيَّةِ مثلَ الصَّليبِ إلى رموزٍ ثقافيَّةٍ يجعلُها تَفْقِدُ مضمونًا رُوحيًّا في غايةِ الأهميةِ للمسيحيِّينَ المؤمنينَ. ولا أعتقدُ أنَّنا ينبغِي أنْ نسمحَ للمسيحيَّةِ أنْ تتحوَّلَ إلى محددٍ للهُويةِ لأجلِ المواجهةِ بينَ الغربِ والعالَمِ الإسلاميِّ، بل يجبُ أنْ نكونَ في غايةِ الوضوحِ بتأكيدِ أنَّ: المسيحيةَ ليست عدوًّا للإسلامِ.
في العددِ الأخيرِ من مجلةِ "Foreign Affairs"، ذكَرَ «شادي حميد» في مقالتِهِ عن الإخوانِ المسلمينَ: أنَّ النَّزعةَ الإسلاميَّةَ قد بدأتْ في التَّشكُّلِ فقطْ حينَ شَرَعت في تحديدِ أعدائِهَا، ولذا يجبُ أنْ يَنصَبَّ الجهدُ المُشْتَرَكُ لكُلٍّ من المفكرين المسلمينَ والمسيحيِّينَ علَى مَنْعِ ذلكَ.
***